قسم الأبحاث | 2018-11-12

"دماء راهب"

قيامة العنف والأصوليّة

رامي شفيق
باحث مصريّ

جميع الحقوق محفوظة © 2018
www.hafryat.com

كشفت قضية مقتل الأنبا أبيفانيوس، رئيس دير الأنبا مقار بوادي النطرون، نهاية تموز (يوليو) العام 2018، العديد من الإشكاليات التي تواجه الكنيسة الأرثوذكسية، والتحديات التي يواجهها البابا تواضروس الثاني، بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية المصرية، وسعيه الدؤوب نحو إعادة ترتيب البيت الكنسي، وتنظيمه من الداخل، وبعث الإصلاح بين جنبات المؤسسة الدينية، سيما أنّ البابا، الذي تمّ انتخابه في ظرف استثنائي، يواجه الكنيسة القبطية والدولة المصرية في آن معاً.

ليس ثمة شكّ في أنّ واقعة مقتل الأنبا أبيفانيوس تتقاطع والجدل الدائر حول الكنيسة، وما تعتريها من علامات استفهام عديدة، فيما يتصل بمساحة الدور الخاص بالإكليروس والدور المنوط بالعلمانيين، وكيف يلتقيان معاً في علاقة تصالحية وتكاملية، من أجل تأمين الكنيسة الأرثوذكسية وترميمها من أية تصدعات وانقسامات، خاصة أنّ هذا الدور تعرض للإزاحة، منذ عصري البابا كيرلس السادس والبابا شنودة؛ إذ استقرّ في عقيدة البابا شنودة أنّ العلمانيين يزاحمون الإكليروس في إدارة شؤون الكنيسة.

ومن ثمّ، عمد البابا شنودة إلى رسم أعضاء المجلس الملي شمامسة، وتم اختيارهم وفق قوائم يوافق عليها البابا نفسه، واستمرّ الأمر على هذا النحو، حتى عام 2011، رغم محاولات التيار العلماني العديدة، والأوراق البحثية التي قدمت للبطريرك طيلة الأعوام العشرة التي سبقت وفاته، بصدد قضايا الرهبنة، وإدارة شؤون الكنيسة والأديرة، وقضايا الأحوال الشخصية، واختيار البطريرك.

عامان بالضبط يفصلان بين لحظة ميلاد الرئيس عبد الفتاح السيسي، وقداسة البابا تواضروس الثاني، وهي المدة ذاتها التي تفصل بين فترتي رسامة البابا كبطريرك، ووصول السيسي إلى الحكم، تلك المفارقة التاريخية التي رافقت البابا والرئيس، تكاد أن تكون بمثابة متلازمة عرفتها مؤسستي الكنيسة والرئاسة؛ وذلك منذ ثورة 23 تموز (يوليو) 1952، حيث تولى عبد الناصر مقاليد الحكم، وواكبه رسامة البابا كيرلس السادس، ومن بعدهما، جاء السادات ومبارك يعيدان مع نيافة الأنبا شنودة الثالث التراتبية الزمنية نفسها.

ولطالما جاءت البدايات المتماثلة بين البابا والرئيس, لتؤبد واقعاً دقيقاً؛ في ظلّ انتقال المنصبين الجديدين لكليهما, ما يطرح العديد من التساؤلات, ويفتح كافة السيناريوهات حول الاستحقاقات المطلوبة منهما في إطار الوطن والكنيسة.

مع نهايات العام 2010, اندلعت أحداث العمرانية, وتوقف بناء كنيسة العذراء والملاك ميخائيل, وأسفرت الأحداث عن صدام بين رجال الأمن ومتظاهرين أقباط, ترتب عليه إصابة البعض, والقبض على آخرين, بيد أنه مع أفول هذا العام المليء بالوقائع والأحداث والدلالات المؤثرة, ظهرت نتائج انتخابات البرلمان المصري التي عكست تقدماً كاسحاً للحزب الوطني الحاكم وقتها, ما أحدث أزمة سياسية أدّت إلى انطلاق مظاهرات ما درج على تسميته «الربيع العربي» وعزل الرئيس وحكومته.

أعلن البابا شنودة اعتكافه بدير وادي النطرون, وأوفد الرئيس مبارك الدكتور مصطفى الفقي, لمقابلة البابا ومحاولة ترضيته, وتمكّن الأخير من إقناع البابا بالعودة إلى الكاتدرائية, والاستجابة لمطالبه بالإفراج عن المقبوض عليهم من شباب الأقباط, قبل احتفالات عيد الميلاد المجيد, وحينما عاد البابا للكاتدرائية وقع حادث تفجير كنيسة القديسين, ليلة الأول من كانون الثاني (يناير) العام 2011 بالإسكندرية.

ثورة يناير وتهديد سلطة الكنيسة

لم تكن ثورة الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) 2011 واضحة الأثر, في عزل الرئيس مبارك فقط؛ بل كانت المرة الأولى التي يخرج فيها الأقباط عن سلطة وهيمنة الكنيسة والبطريرك, في مواجهة صريحة مع الدولة, بعيداً عن نفوذهما, منذ تكفلت المؤسسة الدينية القبطية بوضع يدها الثقيلة على أتباعها, ومنعهم من العصيان والتمرد السياسي, طيلة عقود مضت, لاسيما فترة الرئيس مبارك.

ومثلما كان على النظام السياسي المصري أن يتعامل مع تلك الأوضاع الجديدة, بما فيها من سيولة سياسية في الشارع السياسي, كان على الكنيسة الأرثوذكسية مهمّة, لا تقل صعوبة ومشقة في أن تعثر على الطريقة المناسبة للتعامل مع فوران الأقباط, ومشهد خروج الإكليروس ورجال الدين بملابس الكهنوت, إلى الشارع في مظاهرات واحتجاجات ضدّ تزايد وتيرة الأحداث الطائفية؛ الأمر الذي أظهر أنّ ثمة

صوت غير الصوت الرسمي، يفصح عن وجوده المضمر في ملف الأقباط وعلاقته بنسيج الدولة.

غيّب الموت البابا شنودة الثالث، في شهر آذار (مارس) 2012، وأدار الأنبا باخوميوس، الكنيسة في فترة الانتخابات الرئاسية، واعتلى الرئيس المعزول محمد مرسي حكم مصر، وفي المقابل؛ وصل الأنبا تواضروس الثاني إلى كرسي مارمرقس الرسول، وكانت تلك الفترة من أبرز التحديات التي واجهت البابا والكنيسة، والتي تجسدت في اعتداء عناصر من جماعة الإخوان على المقرّ البابوي، للمرة الأولى في التاريخ، وذلك في شهر نيسان (أبريل) 2013، وسط غياب أيّ تحرك إيجابي من مؤسسة الرئاسة، آنذاك، وبدت الكنيسة والبطريرك وكأنهما يواجهان المجهول.

وسرعان ما احتشد المصريون بقوة وكثافة في ميدان التحرير، وعدد آخر من ميادين المحافظات المصرية، في 30 حزيران (يونيو) 2013، وأطاحوا بحكم الإخوان المسلمين، وشاركت الكنيسة في الإعلان عن خارطة الطريق لبناء مصر، الأمر الذي وضع الكنيسة والوطن حينها أمام سؤال المستقبل.

إشكاليّات الرّهبنة

على مدى عقود طويلة، تموضعت العلاقة بين العلمانيين والكنيسة المصرية في بؤرة شديدة التوتر، يجمعهما الالتباس والريبة، وذلك منذ لحظة انعقاد أول مجلس ملّي سنة 1874، الذي سطر أول اشتباك حقيقي بين العلمانيين والإكليروس في إصلاح الكنيسة، واستمر الأمر حتى تجمد في آخر مجلس ملي انعقد في العام 2011، قبل وفاة البابا شنودة الثالث بعام.

تأسست الحركة البتولية، بحسب إجماع الدارسين، على ركائز أربع هي: البتولية، الوحدة، التجرد، الطاعة. وذلك ما يحمي مسيرة الراهب في سعيه نحو الأبدية، حتى يشعر الراهب بحاجته المستمرة لرحمة الله.

وثمة ملاحظة يشير إليها المفكر القبطي، كمال زاخر، في كتابه: « قراءة في واقعنا الكنسي شهادة ورؤية» قائلاً: إنّ «روّاد الرهبنة الأوائل في عصور الازدهار

لم يحصلوا على أية درجة كهنوتية؛ بل رفضوا بإصرار، وهربوا من الضغوط المتوالية من قبل الكنيسة لإعطائهم أيّ منها، حتى درجة الشموسية». ويضيف زاخر: «الآباء الأساقفة المعاصرين الذين تناولوا الحركة الرهبانية في كتاباتهم، لم تستطع كتاباتهم أن تخفي أنيناً مكتوماً يعتمل في قلوبهم، وكأنهم يتمنون فرصة للعودة إلى قلاليهم الأولى»[1].

لم تعرف الأديرة المصرية في تاريخها الطويل، منذ القرن الرابع الميلادي وحتى أواخر القرن الماضي، محبة المال؛ فالرهبنة تبنى على ثلاثة مبادئ أساسية؛ **أولها** الزهد والفقر الاختياري، و**ثانيها** اعتزال العالم، و**ثالثها** البتولية والعفة. ولأنّ الزهد يعني عدم الاهتمام بالماديات؛ كان من أساسيات الرهبنة، بيد أنه مع بدايات النصف الثاني من القرن المنصرم، بدأ اهتمام الأديرة بالمشروعات الإنتاجية، التي تدرّ ربحاً ومالاً، بغرض استخدامه في مشروعات خيرية كثيرة، وفي مساعدة الفقراء، واضطرت الأديرة تكليف رهبان بعينهم بمسؤولية إدارة هذه المشروعات، ما حدا بالرهبان إلى حيازة المال واستثماره في إطار تحقيق هذه الخدمات، وبالتبعية؛ أدّى ذلك إلى تطور في حياة الرهبان، منذ وجد الكثير منهم في هذا الأمر هوى في نفسه؛ إذ إنّ الأموال تحظى ببريق لا يسلم من إغراءاته إلا القليلين، فسقط بعض من هؤلاء في محبة المال، التي قال عنها الإنجيل: «إنّه أصل لكلّ الشرور»[2].

زار الأنبا أبيفانيوس إيطاليا، في أيلول (سبتمبر) 2015، للمشاركة في مؤتمر دولي حول الروحانية الأرثوذكسية، وقرر رئيس الدير أن يجمع لقاءات الأسقف أبيفانيوس مع الرهبان والراهبات المشاركين في المؤتمر، في كتيب يضمّ أقوال الأسقف وردوده على أسئلة المشاركين.

وحول سؤال طرح على الأنبا أبيفانيوس عن عدد الرهبان الموجودين في دير أبو مقار، أجاب الأخير: إنّه فيما يتصل بالرهبان الحقيقيين، فإن عددهم قليل جداً، وأما من يحملون اسم راهب فهم مئة وأربعون تقريباً!

1- كمال زاخر، قراءة في واقعنا الكنسي، دار باناريون، 2015، ص 106 – 107.

2- إسحاق حنا، مقابلة شخصية، أيلول 2018.

وبسؤاله عن عدد الكهنة في الدير؛ أجاب أبيفانيوس على هذا السؤال: إنّ عددهم قليل حتى وفاة الأب متى المسكين، وبعد ذلك تمت رسامة أربعة عشر، ثم ثمانية وعشرون آخرين، والآن هناك رؤساء أديرة يضغطون عليه لرسم باقي الرهبان، وأردف في هذا السياق؛ بأنّ موقفه في هذا الشأن واضح للغاية مع طالبي الرهبنة؛ حيث من شاء منهم رسامة الكهنة فليذهب إلى دير آخر، لأنّ لديه قناعة بأنّ ما شوّه الرهبنة هو المال والكهنوت، بحسب تعبيره[3].

محاولات الإصلاح

ثمّة ملفات عديدة واجهت البابا تواضروس الثاني، من بينها الرهبنة، والمجلس الملي، سعى البطريرك أن يجد طريقاً ممهّداً يعبّر من خلاله بالكنيسة إلى الاستقرار، وفي إطار ذلك استطاع البابا تواضروس أن يقوم بتغيير منظومة مركزية التحكم والقرار في قضايا الأحوال الشخصية، من خلال المجلس الإكليريكي للأحوال الشخصية، سواء من خلال التغيير الكامل لكلّ اللجان الرئيسة والفرعية للمجالس الإكليريكية، أو عبر ضمّ أطباء نفسيين ومستشارين قانونيين لها، للمرة الأولى، وذلك بمراعاة أبعاد جديدة لم تكن تؤخذ في الحسبان قبل ذلك، والعمل على إعادة النظر في مقولة الأنبا شنودة الثالث بأنّه: «لا طلاق إلا لعلة الزنا»، وكذا منح الفرصة لدماء جديدة تضخّ في ملف الأحوال الشخصية، الذي تولاه الأنبا بولا، أسقف طنطا منفرداً، لأكثر من خمسة وعشرين عاماً مضت.

كلّ ما سبق جاء في إطار سعي البابا تواضروس الثاني، لبعث الإصلاح في جنبات الكنيسة، وقام في سبيل تعزيز رؤيته بأكبر حركة تغييرات داخل أروقة المجمع المقدس، بغية تجديد النظام الإداري للكنيسة، وإعادة هيكلة الإدارة الكنسية، بحسب المسؤوليات، سواء بتداول تولي المسؤوليات بالانتخاب، أو بالتعيين لسكرتارية المجمع المقدس، لمدة عامين، بحدٍّ أقصى، دورتين متتاليتين، ومن ثمّ دعم ما يبقى بوجود معهد متخصص للعلوم الإدارية، لتقديم دورات تدريبية متخصصة لرجال الدين[4].

3- جريدة الوطن، العدد 2323، 8 أيلول 2018.

4- هاني لبيب، المصري اليوم، الأحد 12 آب 2018.

وترتب على ذلك، استبعاد شخصيات بعينها من المجمع المقدس، تستطيع أن نلحظ، وبسهولة، أنها من كانت تهيمن وتدير الأمور، في حبرية الأنبا شنودة الثالث.

في إطار سعي البابا تواضروس لضبط الحياة الرهبانية، في ضوء حادث مقتل الأنبا أبيفانيوس، أسقف ورئيس دير أبو مقار، بوادي النطرون، عقدت لجنة الرهبنة بالمجمع المقدس اجتماعاً، في آب (أغسطس) 2018، برئاسة البطريرك، وأصدرت عدة قرارات كان من أهمها على الإطلاق:

- وقف رهبنة أو قبول أخوة جدد في جميع الأديرة داخل مصر لمدة عام يبدأ من آب (أغسطس) 2018.

- تحديد عدد الراهبات في كلّ دير بحسب ظروفه وإمكانياته، وعدم تجاوز هذا العدد لضبط الحياة الرهبانية وتجويد العمل الرهباني.

- إيقاف رسامة الرهبان في الدرجات الكهنوتية «قسيس وقمص» لمدة ثلاثة أعوام.

- الاهتمام بحياة الراهب والتزامه الرهباني داخل الدير واهتمامه بأبديته التي خرج من أجلها.

وتبعاً لذلك؛ تحدّد أنّ كلّ راهب يأتي بالأفعال الآتية يعرّض نفسه للمساءلة والتجريد من الرهبنة والكهنوت، وإعلان ذلك رسمياً:

- الظهور الإعلامي بأيّة صورة أو وسيلة.

- التورط في أيّة معاملات مالية أو مشروعات لم يكلفه بها ديره.

- التواجد خارج الدير دون مبرر.

- مناشدة جموع الأقباط بعدم الدخول في أيّة معاملات مالية أو مشروعات مع الرهبان أو الراهبات, وعدم تقديم أيّة تبرعات, عينية أو مادّية, إلا من خلال رئاسة الدير.

ومن خلال ذلك؛ تتضح تساؤلات الدراسة: حول مدى ما يواجه الإصلاح الكنسي صراعاً بين الإكليروس والعلمانيين, وهل أضحى الصراع الآن بين تيارات الإكليروس الذين عاصروا البابا شنودة؟ وبالتالي: هل يريدون أن يستمر الأمر كما كان في حوزتهم دون مزاحمة العلمانيين؟ أم أنّ رغبة البابا تواضروس الثاني, التي أعلنها أكثر من مرة, في تعديل اسم ولائحة ومضمون المجلس الملي, حيث تتوافق مع رؤيته في إصلاح وإدارة شؤون الكنيسة؟

يتحدّد, وفق معطيات الدراسة, أنّ ثمة رؤيتين تتحكمان أو تتشكل داخلهما مسارات الإصلاح الكنسي؛ **الرؤية الأولى** جاءت من خارج رجال الإكليروس, وذلك في محاولتهم تشكيل المجلس الملّي عام 1874, عقب نياحة الأنبا ديمتريوس الثاني, وجلوس البطريرك كيرلس الخامس, الذي استمر على كرسي مارمرقس الرسول, قرابة النصف قرن, وتوفَّى في لحظة فارقة في تاريخ مصر , عام 1927, وهو العام ذاته الذي توفَّى فيه الزعيم سعد زغلول, والشيخ أبي الفضل الجيزاوي, شيخ الجامع الـأزهر, وكان الصراع والخلاف المحتدم, هو عنوان تلك الفترة بين البطريرك والمجلس الملي.

الرؤية الثانية؛ جاءت عبر جيل الرهبان الجامعيين, الذين دخلوا سلك الرهبنة, في الأربعينيات من القرن الماضي, وآمنوا بأنّ الإصلاح الكنسي لن يتم إلا من داخل الكنيسة, وكان من بين هؤلاء: الأنبا شنودة الثالث بطريرك الكنيسة, والأب متى المسكين, والأنبا غريغوريوس, أسقف البحث العلمي, والأنبا صموئيل, أسقف الخدمات.

ويري أبو سيف يوسف؛ أنّ حركة الاحتجاجات, على ما آلت إليه الأوضاع الكنسية, اتخذت في مجتمع الأقباط صيغتين:

الأولى: إصلاحية في جوهرها؛ حيث برز منذ عام 1898 الأرشيدياكون, حبيب جرجس, الذي أصبح مديراً للمدرسة الإكليريكية عام 1918, في حبرية البابا, كيرلس الخامس, وعمل على ترقية المستوى العلمي والثقافي لرجال الإكليروس, حتى اكتملت حركة مدارس الأحد, في صورة مؤسسة داخل الكنيسة القبطية, عام 1918, وكان من الواضح أنّ من أبرز الدوافع التي أدّت إلى تشكيل مدارس الأحد, هي مواجهة سعي الكنيسة الإنجيلية إلى استقطاب الشباب الأرثوذكسي إلى مدارسها, وذلك في إطار نشاط الحركات التبشيرية, التي نشطت من خلال بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. **أما الثانية؛** فكانت سياسية, بالأساس, ومن خارج الكنيسة.

وجاءت الحركة الاحتجاجية الثانية, عبر جماعة الأمة القبطية, التي تأسست عام 1952, وكان على رأس المؤسسين, شاب في العشرينات من عمره, هو المحامي إبراهيم فهمي هلال, وسجلت الجماعة نفسها في وزارة الشؤون الاجتماعية كجماعة دينية لا تشتغل بالسياسة, واختلفت الجماعة مع البطريرك يوساب الثاني, الذي عرف عصره التذمر بين صفوف الأقباط جراء مظاهر الفساد, الذي اقترن بدوائر مقربة من البطريرك, ثم ما لبث, عام 1954, أن قامت مجموعة منهم, وتحت تهديد السلاح, بالهجوم على المقرّ البابوي, وأرغمت البابا على التوقيع على وثيقتين؛ إحداهما تنازله عن منصبه, والأخرى تتضمن دعوة المجلس المقدس والمجلس الملي العام, للاجتماع والإعداد لانتخابات جديدة, غير أن السلطات ألقت القبض على الفاعلين وقدمتهم للمحاكمة, وتمّ حلّ التنظيم[5].

المجلس الملّي: رؤية تاريخيّة

يمكن القول إنّ الكنيسة القبطية كنيسة محافظة, إن لم تكن في الواقع أشد الكنائس تمسكاً بالتقاليد الكنسية, ولعل هذا يرجع إلى عدد من العوامل التاريخية والمذهبية, فضلاً عن نظام الكنيسة كمؤسسة, ما يعكس وبشدة هذا الطابع المحافظ؛ فالتدرج الكهنوتي الذي يبدأ من أسفل, وينتهي إلى أعلى سلطة في الكنيسة, وهي سلطة البطريرك, الذي في النهاية ومن الناحية الواقعية, يحوز سلطة ذات طبيعة مطلقة.

5- أبو سيف يوسف، الأقباط والقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 139.

وقد استقرّ في تقاليد الكنيسة القبطية, أنه ما إن يتم الاتفاق على تحديد شخصية المرشح لمنصب البطريرك, وينتهي حفل تنصيبه تتجمع بيد يديه السلطة الكلية على الكنيسة, وهيئة الإكليروس, وكذا الرعية, وذلك, في كلّ ما يتعلق بالشؤون الروحية, وما يتصل بجميع المؤسسات الملحقة بالكنيسة.

وتقوم سلطة البطريرك على ركيزتين؛ أحدهما, روحية وتستند إلى أن جلوس البطريرك على كرسي مارمرقس الرسول تم بمشيئة إلهية, وركيزة ثانية زمنية وتشتمل على مكون سياسي, يمثل كونه حلقة الاتصال بين الدولة وبين جمهور الأقباط, من ناحية, والدولة والبطريرك, من ناحية أخرى[6].

مع نمو الحركة الديمقراطية الوطنية التي ألحّت على وجود دستور ومجلس نيابي, اتجهت البرجوازية القبطية إلى المماثلة في نظام إدارة الكنيسة, وذلك فيما يتعلق بإدارة الشؤون غير الدينية؛ كالأوقاف والمدارس, وفي هذا الإطار؛ أصدر الباب العالي الأمر, عام 1874, عبر لائحة المجلس الملي, الذي نصّ على أن يتكون من 12 نائباً, يتمّ انتخابهم في جمعية عمومية ويرأس اجتماعها البطريرك.

وفي السادس عشر من كانون الثاني (يناير) 1874؛ تشكّل أول مجلس ملّي, وانتخب بطرس باشا غالي وكيلاً له, ونصّت لائحة المجلس على أن تكون رئاسة المجلس للبطريرك, وبدأ المجلس في أداء مهامه في شباط (فبراير) من ذات العام, بعد أن اعتمد الخديوي إسماعيل تشكيله وإصدار قراره بذلك, حيث جاءت المهام الموكلة للمجلس بحسب لائحته, تتمحور حول النظر في كافة المصالح الداخلية للأقباط, وحصر أوقاف الكنيسة, والأديرة والمدارس وتنظيم حسابات الإيراد والمنصرف, وحفظ الأرصدة, وإدارة المدارس والمطبعة, ومساعدة الفقراء, وحصر الكنائس وقساوسها, والأديرة ورهبانها, والسجلات الموجودة بهذه الجهات, إضافة إلى النظر والفصل في منازعات الزواج والطلاق, وما يتعلق بما يطلق عليه الآن الاحوال الشخصية.

6- نفسه، ص 138.

توفَّى الأنبا ديمتريوس الثاني، بطريرك الكنيسة، في العام 1870، وظلّ الكرسي البابوي شاغراً، حتى رسم الراهب يوحنا الناسخ بطريركاً، في أول تشرين الثاني (نوفمبر) 1875، وحمل اسم كيرلس الخامس.

وفي تلك الأثناء؛ كانت بعثات التبشير تعمل بنشاط وارتباط عضوي بفترة الاستعمار، فيما يشير أندرو واطسون، في كتابه عن الإرساليات الأمريكية في مصر، في الفترة بين عامَي 1854 إلى عام 1896؛ إلى أنّ «الأهداف السياسية من حركات التبشير أكثر أهمية من المسيحية ذاتها، وبينما كانت خطة الأمريكيين هي القضاء على الكنيسة الأرثوذكسية، وضمّ أبنائها إلى كنيسة بروتستانتية جديدة، كانت خطة الإنجليز الإبقاء على كنيسة مصر، مع التغلغل فيها والسيطرة عليها من الداخل».

جاءت لحظة ميلاد المجلس الملي، أثناء سعي الأقباط للمحافظة على تقاليدهم الكنسية- في اختيار البطريرك، ووفق تقاليدهم وطقوسهم الكنسية الخاصة والتقليدية؛ إذ أراد الوالي سعيد أن يتدخل في انتخاب البطريرك، ليصير بذلك تقليداً تتدخل الحكومة بمقتضاه في اختيار كلّ من يعتلي المنصب، وما إن شاع الخبر حتى وقف الأقباط معارضين لهذا الـأمر؛ لأنه يسلبهم حقّ انتخاب البطريرك بملء حريتهم، ويخالف تقاليدهم في انتخاب البطريرك من طائفة الرهبان، كما يخالف قوانينهم الصريحة، في عدم انتقال أسقف إلى منصب آخر.

وأراد الخديوي إسماعيل أن يعيد الكرة، مرة أخرى، فاختار الأنبا مرقس مطران البحيرة والمنوفية، قائم مقام للبطريرك، وألبس إسماعيل المحاولة الثانية ثوب القانون، وأوعز إلى وهبة بك رزق «باشكاتب» ديوان المالية، أن يجمع بعض الأقباط لتزكية الأمر لديهم، حتى ينجح وهبة بك في التأثير على بعض الأقباط، وكاد الأمر أن يحسم لصالح الخديوي، لولا أن تبين الشعب ما في هذا الاتجاه، من تدخل سافر، فاجتمع المجمع المقدس وأصدر قراره بحرمان كل من يتولى هذا المنصب من الأساقفة، وما لبث الأنبا مرقص إلا أن دعا بعض من شعب الكنيسة للمشاركة في إدارة شؤونها، وذلك ما عرف بـ «المجلس الملي».

في نهاية القرن التاسع عشر؛ ظهر اتجاهان مختلفان؛ الأول اتجاه الكنيسة الذي كان يتزعمه البطريرك كيرلس الخامس، واتجاه يرمي إلى تقليص نفوذ البطريرك، لصالح المجلس الملي، وكان بطرس غالي على رأس الاتجاه المناوئ للبطريرك.

كان البطريرك كيرلس الخامس محافظاً، وتريث في دعوات هؤلاء الذين تلقوا تعليماً في انجلترا وفرنسا، وراقهم انتخاب الشعب حكومته عن طريق الهيئات النيابية، ولهذا ركز البابا في منشوراته على أنّ المجلس يهدف إلى طرد الإكليروس عن آخرهم، وأن يسيطر العلمانيون على الكنيسة، فحلّ المجلس أكثر من مرة، واستعان المجلس بالسلطة السياسية، وإزاء معارضة البابا، تم نفيه إلى دير البراموس بوادي النطرون.

تأتي علاقة العلمانيين بالإكليروس في إدارة شؤون الكنيسة المصرية من خلال المجلس الملي، في تلك الخبرة التراكمية السلبية التي صاحبت نشأته وعمله منذ البدايات؛ إذ وصل لنقطة المواجهة والصدام بين المجلس وقادة الكنيسة دون الوصول إلى شكل متكامل للتعاون والشراكة، وذلك رغم التعديلات التي أدخلت أكثر من مرة على لائحة المجلس الملّي؛ فإنّ قضية المشاركة الواسعة للجماهير القبطية، في إدارة شئون الكنيسة، لم يقدر لها أن تقدم حلاً جذرياً حتى اللحظة.

مدارس الأحد والمجلس الملّي

اهتمت جماعة مدارس الأحد بقضية المجلس الملي، وكانت أحد أهم الموضوعات التي تناولتها المجلة، وكان لهم منذ اللحظة الأولى موقفاً سلبياً من المجلس، من حيث المبدأ، وعدّوه مزاحماً للإكليروس؛ حيث يرون أنّ عمله تعدَّى على عمل الشمامسة، والشموسية هي واحدة من درجات الأكليروس، لكنّهم مضطرون للتعامل مع هذا الكيان، باعتباره أحد الأنظمة المفروضة قانوناً على الكنيسة.

وقد حفلت مجلة مدارس الأحد بما يؤكد الموقف الرافض، والمترصد للمجلس الملي، ويأتي في افتتاحية المجلة، عام 1950، ما يؤكد مبدأ: أنّ «من حقّ الشعب الذي انتخب أعضاء تلك المجالس أن يناقشهم، ويرى ماذا فعلوا وماذا أنتجوا».

وفي السياق ذاته؛ تذهب سطور المجلة إلى أنّ هؤلاء انتزعوا لأنفسهم حقّ إدارة أمور خطيرة في الكنيسة, وغالبيتهم يجهلون قوانين الكنيسة وعقائدها, وتقاليدها وطقوسها, وفي موضع آخر تقول المجلة: إنّ «المجلس الملي, بصورته الحالية, ليس له أساس من تعاليم الكتاب المقدس, أو قوانين الكنيسة, وإنما هو وضع عالمي, يستند إلى القوانين المدنية»[7].

هذه المدونات التي عبرت عنها جماعة مدارس الأحد من خلال أعدادها المنشورة قبل ثورة 23 تموز (يوليو) 1952؛ استطاعت أن تترجمه عبر أبنائها, بعدما أصبحوا قادة الكنيسة, كمثال البابا شنودة الثالث 1971 -2012 وذلك عبر تفريغ الدور العلماني من مضمونه, وتكريس كلّ الصلاحيات في يد الإكليروس وحدهم, وتحوّل العلمانيون إلى مجرد منفذين لرؤية وتوجهات وقرارات الإكليروس, سواء في مجالس الكنائس, أو في المجالس الملية الفرعية, أمّا المجلس الملّي العام؛ فقد مرّ بمرحلتين في العصر الحديث, الذي شهد دخول شباب مدارس الأحد في دائرة القيادة, منذ لحظة اختيارهم ضمن سكرتارية البابا كيرلس السادس, ثم أساقفة عمومين؛ حيث تمّ تجميد المجلس في عصر الرئيس جمال عبد الناصر/ كيرلس السادس, ثم وبحنكة ومهارة سياسية وإدارية, أعيد تشكيل المجلس الملي, في عهد البابا شنودة الثالث؛ حيث يبدو الشكل مكتملاً, وساعد على ذلك عدة عوامل, منها المناخ المحتقن طائفياً, الذي دفع الأقباط للالتفاف حول الكنيسة ممثلة في قيادتها, والانفتاح الإعلامي, وسيطرته على ذهنية المتلقي, وحرص البطريرك على إعادة إصدار مجلة الكرازة, التي تحولت في إصدارها الثاني إلي ما يشبه الجريدة الرسمية للكنيسة, مع اهتمام البطريرك شنودة الثالث, باستمرار اجتماعه الأسبوعي يومي الجمعة والأربعاء.

وفّرت جملة العوامل السابقة, التي تسير في اتجاه رؤية شباب مدارس الأحد, عدم شرعية المجلس الملي كنسياً, وتبقى أمامه عقبة اللائحة, وجاء المخرج عبر ترتيب قائمة تضمّ من ترى القيادة فيهم أهل للثقة والولاء, ودفعهم للترشيح وتقديمهم للناخبين, والإيعاز لهم من فوق منابر الكنائس؛ بأنّ هؤلاء هم أبناء البابا,

7- هاني لبيب، ص 151.

وعلى كلّ من يحبّه، ولا يريد المجيء بمن يعارضه، أن ينتخبهم، وتنتهي التوجيهات بأن: «ابن الطاعة تحلّ عليه البركة»، ذلك رغم إعلان البابا شنودة الثالث، في أكثر من تصريح، أنّ لا علاقة له بأيّة قوائم.

دير أبو مقار يفجّر الأزمات

جاءت وفاة الراهب زينون المقاري، وسط روايات عن انتحاره بتناول السمّ، لتؤجج الجدل مرة أخرى داخل دير أبو مقار، بوادي النطرون، الذي احتوى بين جدرانه لأعوام الخلاف بين البطريرك المتنحي البابا شنودة الثالث، والقمص المتنحي الأب متى المسكين؛ وهو الخلاف الذي يعود إلى ستينيات القرن الماضي، واستمر يضرب علاقة البطريرك والقمص، حتى وفاة صاحب مؤلَّف «الكنيسة والدولة» (متى المسكين)، عام 2006، وهي الأرض ذاتها التي شهدت محاولة انتحار المتهم الأول والثاني بقتل الأنبا أبيفانيوس، رئيس دير الأنبا مقار، في نهاية تموز (يوليو) 2018.

بدا البابا تواضروس الثاني، بطريرك الكرازة المرقسية، حزيناً باكياً في صلاة جنازة الأسقف القتيل، بيد أنّ الحزن والغضب لم يمنعاه من التحدث والإشارة إلى لبّ الأزمة وجوهرها، وذلك حين قال: «أخرجوا الانحراف بعيداً عن الرهبنة، أنتم لا تتبعون أحدا بعينه، فأنتم رهبان القديس العظيم الأنبا مقار، لا تتحدثوا للإعلام، لأنّ الرهبنة موت عن العالم»[8].

خرجت كلمات البابا، وهو يعي جيداً ما يقصده، آملاً أن تستقر في ذهن وعقل كلّ الرهبان، سيما من يتواجدون داخل دير الأنبا مقار، وفي ذات الوقت ترجمها البابا في صورة قرارات كنسية؛ إذ أصدرت لجنة شؤون الأديرة والرهبنة، في 25 آب (أغسطس) 2018، قراراً ينصّ على نقل ستة من رهبان الدير إلى ستة أديرة أخرى، وذلك بعدما قام ممثلين عن اللجنة، تحت إشراف البطريرك، بإجراء تحقيقات مع عدد من الرهبان، بغية إعادة ضبط الحياة الرهبانية.

جاء الراهب زينون المقاري ضمن الستة الذين قررت اللجنة نقلهم إلى عدد من الأديرة، وجاء قرار نقل زينون إلى دير المحرق بالقوصية في أسيوط بصعيد مصر،

8- الأقباط اليوم، 2 آب 2018.

وكشف الأنبا بيجول أسقف ورئيس الدير؛ أنّ الراهب غادر الدير بعد أسبوع من قدومه إلى دير المحرق, وتنفيذه لقرار اللجنة؛ حيث أرسل رسالة إلى رئيس الدير, يخبره فيها بأمر المغادرة, ثم ما لبث أن عاد بعد مغادرته بثلاثة أيام, وطلب الرجوع؛ حيث تمّت الموافقة له, وعاد مرة أخرى, إلى أن غيّبه الموت, في نهاية أيلول (سبتمبر) 2018[9].

ربما يستحيل الاقتراب من الأحداث الراهنة, ومعرفة ماهيتها وتفاصيلها, وفضّ تعقيداتها والالتباسات العديدة حولها, دون الاشتباك بدأب مع الرهبنة وتطور علاقتها بالكنيسة الأرثوذكسية, في إطارها التاريخي, سيما بين نيافة البابا شنودة الثالث والأب متى المسكين, وكيف أضحت الرهبنة سبيلاً لقيادة الكنيسة, رغم حرص مؤسّسيها على أن يحتفظوا بمسافة بينهم وبين المناصب الكهنوتية, منذ لحظة ولادتها, وعلى امتداد قرون؛ إذ كانت الأديرة حتى منتصف القرن العشرين تحتل مواقع بعيدة عن العمران, وكان يصعب التواصل معها, لوعورة الطرق وانعدام المواصلات السهلة والممكنة في بعض الأحيان, ورغم ما تضمه من معرفة لاهوتية, إلّا أنّ تلك الأديرة في هذه الحقبة, لم يكن لها دور فاعل في الخدمة الكنسية, إلا عبر اختيار الآباء الأساقفة والبطاركة, بحسب ما استقر في تقاليد وطقوس وترتيبات الكنيسة.

قبل أن يغيب الموت البابا شنودة بثلاثة أعوام, زار دير الأنبا مقار, وجاءت تلك الزيارة بعدما أعلن الأنبا ميخائيل, مطران أسيوط, استقالته من رئاسة الدير, في آذار (مارس) 2009, وذلك بعد ما مضى قرابة خمسة وستين عاماً على خدمته في رئاسة الدير, وحينها أعلن البطريرك, شنودة الثالث, مسؤوليته المباشرة عن الدير والرهبان, وتحقّق للبابا سعيه؛ في إخضاع الرهبان ودير أبو مقار لسلطة الكنيسة الأرثوذكسية, قاطعاً حالة الاستقلال الذي حظي به دير أبو مقار, طيلة حياة الأب متى المسكين.

وفي إطار تعزيز قبضة البابا على الدير, رسم البابا شنودة الثالث عدداً من الرهبان, وألحقهم بالدير, عام 2010, وتباعاً, قرّر إلباس كلّ رهبان الدير «القلنسوة الرهبانية المشقوقة», التي كان يمتنع الأب متى المسكين ورهبانه عن ارتدائها,

9- اليوم السابع، تصريحات الأنبا بيجول، أسقف ورئيس دير السيدة العذراء، السبت 29 أيلول 2018.

خلافاً لبقية رهبان الكنيسة الأرثوذكسية, الأمر الذي يسمح لنيافة البطريرك شنودة الثالث أن يميز من يخضع لتعليماته من رهبان دير أبو مقار, في مقابل من ظلّ قابضاً على تعليمات و«نسك» الأب متى المسكين.

وتطرح التساؤلات نفسها عن واقع دير الأنبا أبو مقار, وكيف كان الرهبان تحت مظلة الأب متى المسكين؟ وما الذي تعرض له الدير بعد وفاته, عام 2006, بعد أن أضحى الدير تحت إشراف البابا شنودة الثالث؟ وما هي محاولاته لبسط إرادته الكنسية والفكرية على الدير؟

ويضاف إلى ذلك؛ الكيفية التي واجه بها البابا تواضروس بعد ذلك واقع وحال رهبان, وقد بدا حالهم وكأنهم فريقين؛ أحدهما يتبع مسار ورؤى شيخ آباء الكنيسة متى المسكين, والآخر يلتزم برؤى البابا شنودة الثالث, ويحسب الأنبا أبيفانيوس بصورة كبيرة على مدرسة الأب متى المسكين, الذي كان يعمل بمنهجه ويحرص على إحيائه, بدعم من البطريرك تواوضروس الثاني, ونجد ذلك كلّه في كلمة الأنبا أبيفانيوس, إبان مشاركته في مؤتمر «بوذي», في بريطانيا, عام 2016, وكان يلقي كلمة عن الأب متى المسكين, في الذكرى العاشرة لنياحته, و فيها يقول: «كلفني البابا تواضروس الثاني المشاركة في هذا المؤتمر, إذ تحلّ علينا الذكرى العاشرة لنياحة أبينا الروحي متى المسكين, الذي تتلمذنا على يديه, وتعلمنا منه الكثير, وما نزال كلّ يوم نتعلم من كتاباته وسيرته, التي تركها لنا زخراً للكنيسة الجامعة, وترك لأولاده ميراثاً عزيزاً, إنسانياً وروحياً, ما نزال ننهل منه حتى الآن, ولا ندّعي أننا قد استطعنا أن نستوعبه كلّه, أو حتى ندرك أبعاده"[10].

من خلال هذه النقطة, التي تتمثل في فكر الأب متى المسكين إزاء علاقة الكنيسة بالدولة, ورؤيته في الرهبنة وحالها, والرهبان وأوضاعهم, وبداية علاقته بدير الأنبا مقار منذ نهاية الستينيات في القرن الماضي, من هنا, على وجه التحديد, نستطيع أن نضيء الطريق لكشف ما اعترى الوطن والكنيسة من متغيرات, وكيف

10- كلمة نيافة الأنبا إبيفانيوس، أسقف ورئيس دير القديس أنبا مقار، في مؤتمر «بوزي(Bose) " بإيطاليا، بمناسبة الذكرى العاشرة لنياحة الأب متى المسكين.
htm.sm061605/mark_st/org.stmacariusmonastery.www//:http

بدا عليهما أثر تلك المتغيرات, ويأتي ذلك في إطار رؤية تاريخية للوطن والكنيسة معاً.

تأتي لحظة إتمام مصر معاهدة 1936 نقطة مركزية في علاقة حزب الوفد بالجماهير المصرية, ورؤية الحزب لمسألة الاستقلال عن الاحتلال البريطاني, وكذا علاقة زعماء وقيادات الحزب بالسفارة البريطانية ورجالاتها؛ إذ خلص الوفد إلى أنه استطاع أن يدرك مبتغاه, وأنه تمكنه إدارة أمور حكمه من خلال علاقته بالقصر وضبط إيقاعها, خاصة أنّ إتمام المعاهدة جاء والقصر يستقبل ملكاً جديداً, الملك فاروق الأول, وذلك بعد وفاة والده الملك فؤاد.

ورث الملك فاروق عن والده فؤاد كراهية الوفد, وكان رفقاء الملك يتفقون معه في أنّ الوفد والنحاس, هما العائق الأبرز أمام تجلّي فاروق للجماهير المصرية, ورأوا أنّه لا سبيل إلى ذلك سوى الدين كمسوّغ لتمرير الصبي الملك, وفي إطار ذلك نشطت الجماعات الأيدولوجية, سيما الإخوان المسلمين, وظهرت رسالة المؤتمر الخامس للإخوان, وهي تبشر بخوض الجماعة غمار السياسة, وذلك على ضوء ما حصدته من دفعات معنوية ومادية من كافة الجهات المحلية والدولية؛ بداية من القصر, ثم الاحتلال البريطاني وألمانيا؛ وهو الأمر الذي صنع ووضع البذرة الأولى لبزوغ الأصولية الإسلامية.

ثلاثة آباء تبوّؤوا كرسي مارمرقص الرسول؛ منذ نياحة الأنبا كيرلس الخامس, عام 1927, الذي جلس على كرسي البطريركية قرابة النصف قرن, ثلاثة آباء صعدوا كرسي البطريرك, حتى قيام ثورة 23 تموز (يوليو) 1952؛ جاء أولهم عام 1928, وكان في منصب القائم مقام, الأنبا يوأنس التاسع عشر, بين عامي 1942 و1927, واقترن اسم البطريرك الأخير باسم الملك فؤاد والترحيب بإسقاط دستور 1923, والعداء لحزب الوفد, وأشار البعض إلى أنّ اختيار الأنبا يوأنس التاسع عشر جاء بموافقة وترحيب الملك فؤاد والإنجليز, حيث كان أوّل أسقف مطران يصبح بطريركاً؛ الأمر الذي يعدّه البعض مخالفاً لمجمع نيقيه, وتقاليد وطقوس الكنيسة في اختيار الآباء البطاركة.

مع مطلع عام 1942؛ كانت صورة العلاقات بين الوفد, الذي تزعّمه مصطفى النحاس, والإنجليز, تظهر الوفد في حالة تعطّش كامل, للعودة إلى السلطة, بعد أن قضى أربعة أعوام خارج الحكم, مما أدّى إلى تهافته على الإنجليز, ومن ناحية أخرى؛ أدّت الأوضاع الاقتصادية السيئة في مصر, وظروف الحرب العالمية الثانية, إلى أن شعرت بريطانيا بالخطر, فجاء تحرّكها في الرابع من شباط (فبراير) 1942, كردّ فعل على تلك الأحداث؛ إذ أدركت أنّ عودة الوفد تعني استقرار الشارع, ووضع حدّ لمؤامرات القصر, في إطار لعبة الصراع بين القصر والوفد, وظلّ الوفد والنحاس في الحكم, حتى خرج في تشرين الأول (أكتوبر) 1944, بعد أن تفاقمت الأزمات بينه وبين الملك فاروق, ولم تعد إنجلترا في حاجة إليه (الوفد و النحاس), وفي تلك الأثناء؛ كان النحاس يحاول أن يلملم شعبيته التي تناثرت, وتأثرت بشكل كبير في مسألة الوطنية والنزاهة وعلاقته بالإنجليز.

مات الأنبا يوأنس التاسع عشر عام 1942, وكان الأنبا مكاريوس مطران أسيوط معروف بميوله الإصلاحية, وفاز الأنبا مكاريوس وسط المرشحين, وأيّده المجلس الملّي, ومن ثم منح البطريرك المجلس كافة الصلاحيات, وأرسل بذلك خطاباً لحزب الوفد؛ فأصدر مجلس الوزراء قراراً ببطلان ما ذهب إليه المجمع المقدس, فما كان من المجمع إلا أن قاطع البطريرك, حينها وجد البطريرك نفسه وحيداً بين طرفين متشددين, غير قابلين للحلول الوسط ولمّ الشمل, فهجر البطريركية إلى دير الأنبا بولا, ثم عاد بعد سقوط حكومة الوفد, في تشرين الأول (أكتوبر) 1944, وتوسط أحمد ماهر, رئيس الحكومة الجديد, وجمع البطريرك والمجمع المقدس, وأعاد للبطريرك صلاحياته على حساب حلفائه في المجلس الملّي, إلى أن أعطى البطريرك أوامر للبنوك, بعدم صرف أموال الكنيسة, إلا بتوقيعه شخصياً, وتوترت المشكلات حتى غيّب الموت البطريرك مكاريوس, عام 1945[11].

ظلّت بريطانيا على عهدها, وفتحت الباب تحت رغبة القصر أمام عدد من حكومات الأقلية؛ حيث حاول القصر من خلال تلك الحكومات بسط يده على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد, ويثبت للإنجليز أنه قادر على استتباب

11- سليمان شفيق، قصة الصراع بين العلمانيين والإكليروس على لائحتي المجلس الملي، مجلة «وطني»، عدد 21 آذار 2012.

الأمور, بعيداً عن الوفد والنحاس, ودخلت مصر حرب فلسطين 1948, في محاولة يائسة من الملك, لكسب ثقة وشرعية جماهيرية واهتمام الشارع المصري, لكن دون جدوى؛ إذ كانت الهزيمة في الحرب من أكبر اللّطمات التي نالها الملك في أواخر حكمه.

جرت عملية انتخاب الأنبا يوساب في ظلّ حكومة النقراشي, وحاز المنصب عام 1946, وتعهّد لوكيل المجلس الملي, الدكتور إبراهيم فهمي المنياوي, بعودة اختصاصات المجلس الملي طبقاً للقانون 19 لعام 1927, كما تعهّد للقمص إبراهيم لوقا, وكيل البطريركية, بالاستغناء عن خدمات خادم له عرف بالفساد, وهو ملك جرجس, وصدر الـأمر الملكي بتعيين يوساب الثاني بطريركاً للأقباط الأرثوذكس, في الرابع عشر من أيار (مايو) 1946, في عهد حكومة إسماعيل صدقي الثانية, وفي الخامس من أيلول (سبتمبر) 1955, اجتمع المجمع المقدس, وأصدر قراره بإعفاء الـأنبا يوساب من منصبه, وإبعاده عن المقرّ البطريركي بالقاهرة والإسكندرية, وتشكيل لجنة ثلاثية لإدارة الكنيسة, وأرجع المجمع المقدس قراره لأسباب تتعلق بتبديد أموال الكنيسة, واستعانة البطريرك بالأشرار كمستشارين.

بعد فترة فراغ كرسي مارمرقس الرسول دامت ثلاثة أعوام, تمّ انتخاب يوحنا الناسخ, الذي عرف بعد سيامته بالبابا كيرلس السادس, وذلك عن طريق القرعة الهيكلية, وكان على البابا أن يدير الكنيسة, مع جيل من الرهبان الجامعيين, اتخذوا من الرهبنة سبيلاً وهدفاً لرؤية تبتغي صلاح الكنيسة الأرثوذكسية, ووقفوا بحماس شديد وراء البطريرك, حتى تمّ انتخابه, واستفادوا من مناطق تأثيرهم, خاصّة مدارس الأحد[12].

استجابت الكنيسة الأرثوذكسية والبطريرك لرياح التغيير التي دبّت في أرجاء الكنيسة, وإلى إلحاح هؤلاء الرهبان على البابا, بأن يسمح لهم بقسط أكبر من النشاط, وأقدم البابا على خطوة جديدة, للمرة الأولى في الكنيسة القبطية, إذ أنشأ أسقفيات جديدة لا تمثل مناطق جغرافية أو سكانية محددة.

12- سليمان شفيق، نفسه.

وكان من أبرز رهبان هذا الجيل, الذين أضحوا أساقفة؛ سعد عزيز, الذي أصبح راهباً باسم مكاري السرياني, ثم أصبح أسقفاً للخدمات باسم الأنبا صموئيل, وكان بمثابة مسؤول عن العلاقات الخارجية للكنيسة القبطية, وإلى ذلك؛ كان هناك «وهيب عطا الله,» وهو حاصل على الدكتوراه في فلسفة اللغات, ثم دخل عالم الرهبنة ورسم أسقفا باسم الأنبا غريغوريوس, وعيّنه البابا كيرلس السادس, أسقفاً للبحث العلمي, بيد أنّه ثمة راهب آخر جاء باسم نظير جيد, وقد تخرج من كلية الآداب, وأصبح صحفياً وكاتباً وشاعراً, وانخرط في حزب الكتلة, بقيادة مكرم عبيد المنشق عن حزب الوفد, عبر الخلاف المشهور بين قطبي الوفد «مكرم والنحاس», ثم دخل عالم الرهبنة وجرى رسمه أسقفاً باسم الـأنبا شنودة, ومسؤولاً عن التربية في الكنيسة, وهكذا باتت كليات اللاهوت ومدارس الـحدّ ضمن اختصاصاته.

لكنّ واحداً من هؤلاء الرهبان الجامعيين آثر أن يظلّ في الدير, ولم يصبح مثل بقية زملائه أسقفاً بغير إبراشية محددة, اسمه يوسف إسكندر, وكان حاصلاً على بكالوريوس الصيدلة, واختار لنفسه بعد رسامته راهباً اسم متى المسكين, وقد استقر في دير القديس أبو مقار؛ حيث استطاع تحويل هذا الدير إلى منشأة إنتاجية كبيرة, من خلال استصلاح أراض الدير, وما أضافه من معدات, ولم يعد دير أبو مقار مكاناً للعبادة قط, ولا مجرّد منشأة إنتاجية ضخمة, ولا يستهان بها فحسب, لكنّه أصبح نقطة مؤثرة, وكتلة نافذة في قلب الكنيسة وعقل البطريرك البابا شنودة الثالث.

كان الخلاف هو عنوان العلاقة بين ثلاثة أطراف رئيسة وفاعلة في الكنيسة الأرثوذكسية: البابا كيرلس السادس, والأسقف شنودة, والقمص متى المسكين؛ إذ تمثلت رؤية الأنبا شنودة في مؤسسة الكنيسة باعتبارها مؤسسة شاملة تحمل كافة الإجابات عن أسئلة الدنيا والدين, وأنّ البطريرك يحمل تبعات ومسؤوليات السلطة الزمنية والروحية, سياسية ودينية, بينما كانت رؤية الـأب متى المسكين, تتركّز في أنّ الكنيسة, على مرّ العصور, تضحي ناجحة في تأدية وظيفتها, قدر حرصها على الابتعاد عن أمور السياسة, وكان على البطريرك كيرلس السادس حينها أن يتعامل مع أتباعه الأساقفة, وهم يحملون رؤيتهم وأفكارهم, وعلى هذا كاد البطريرك أن يخرج الأنبا شنودة إلى دير وادي النطرون, لولا ثورة وغضب دبت في أوساط الشباب

عاد إثرها الأنبا للقاهرة, وكذا فعل البطريرك مع متى المسكين, حين أمره أن يخرج من الدير, ويهيم على وجهه في الصحراء, حتى توسط في الأمر بعض رجال الدين, وعاد الأب متى المسكين إلى ديره مرة أخرى[13].

وبذلك؛ كان الأطراف الثلاثة يتقاطعون الخلاف معهم وحولهم؛ حيث حسمت الظروف «القدرية» الأمر؛ إذ غيّب الموت البابا كيرلس السادس, عام 1971, تاركاً الخلاف حيّاً ومتجدداً بين البطريرك البابا شنودة الثالث, والأب متى المسكين.

دير الأنبا مقار: الرّهبنة ...جذور وواقع

تأسّست الرهبنة على ركائز أساسية هي: البتولية, الوحدة, الفقر الاختياري, الطاعة, ولا يمكن تصور الكنيسة الأرثوذكسية المصرية دون الرهبنة؛ فهي المخزون الإستراتيجي للاهوت, وتعلّم عقائد وطقوس الكنيسة, والداعم الرئيس لها, فضلاً عن أنها فكر مصريّ نبت على أرضها, وامتدّ إلى العالم كلّه, وقد أضحت الرهبنة في العقود الأخيرة الممرّ الرئيس لتولّي كلّ المواقع الخدمية للكنيسة, سيما بعد التوسعة في سيامة الأساقفة العموم, وإزاحة العلمانيين عن كافة المواقع الكنسية.

يرتبط واقع وحال الكنيسة بحال الرهبنة, تزدهر بازدهارها وصلاح حالها وحال رهبانها, وتتراجع بتراجعها وتضاؤل دورها وتأثيرها؛ حيث يكون من الضروري أن تتجه عقول من يبحثون في حال الكنيسة ومستقبلها نحو الرهبنة؛ يدقّقون واقعها وحالها, ويحللون أزماتها, وما اعتراها من تباينات ومتغيرات.

ثمّة ملاحظتان لا تخطئهما عين دارس لتاريخ حركة الرهبنة:

الأولى: أنّ روّاد الرهبنة الأوائل في عصور الازدهار لم يحصلوا على أيّة درجة كهنوتية, بل رفضوا ذلك بإصرار. والثانية: أنّ الآباء الأساقفة المعاصرين, الذين

13- أندرو نادر، وثائق أسرار الخلافات بين الأب متى المسكين والبابا كيرلس، دوت مصر، الثلاثاء 20 أيلول 2016.

تناولوا الحركة الرهبانية في كتاباتهم, لم يستطيعوا إخفاء أنين مكتوم يعتمل في قلوبهم؛ ففي داخلهم حنين العودة إلى قلاليهم.

يرى نيافة الأنبا باخوميوس, أنّه, كمبدأ, فإنّ «الكنيسة حالياً تسمح للرهبان بالمشاركة في مسؤولياتها للضرورة, لكن لا يجب على الرهبان مزاولة أيّ عمل في الكنيسة؛ لأنّ حياة المجتمع تمنع الراهب من ممارسة تأملاته الفردية الضرورية, ليكون مع الله».

بينما يرى الأنبا باخوم أنّ «أيّة فكرة في حيازة رتبة كهنوتية كفيلة أن تقضي على السلام في الدير, وأنها كشرارة تسقط على القمح, فتضيع عمل ومجهود سنة بكاملها», والرهبنة عند الأب متى المسكين دعوة لها خصوصيتها, ولها منهج معين في السلوك والصلاة, وتختلف عن دعوة الكهنوت, ويرى أنّ «المدعوّ للرهبنة عليه أن يبني قلبه وفكره, وكلّ حياته, على سيرة الآباء القديسين, ويضع أمام عينيه باستمرار وصيتهم الأولى والعظمى أن يبتعد عن العالم والرئاسات»[14].

يعدّ دير القديس الأنبا مقار, بوادي النطرون, أحد أشهر وأقدم الأديرة القبطية, والذي تبلغ مساحته ما يقرب ثلاثة آلاف فدان؛ نصفها أراض مزروعة, ويعدّ الأنبا متى المسكين, الأب الروحي للدير, منذ نهاية الستينيات من القرن الماضي, وذلك بناء على تكليف من قداسة البابا كيرلس السادس, ويعدّ متى المسكين باعث النهضة في الحياة الرهبانية القبطية, منذ تركه لممتلكاته وانخراطه في الرهبنة عام 1948, وذلك من خلال أربعة أديرة؛ دير الأنبا صموئيل, دير السريان, دير صموئيل, مغائر وادي الريان, وأخيراً؛ في دير الأنبا مقار, وعن دخوله في الرهبنة يقول الأب متى المسكين في سيرته الذاتية: «كنت قد حددت في ضميري فترة ستة شهور, منذ أول لحظة عزمت فيها على ذلك في قلبي, وطلبت من الله أن يطلقني دون خسارات كثيرة, لأن أموالاً كثيرة كانت طرف المتعاملين معي, وفي الموعد تماماً وجدت كلّ شيء معي, فانطلقت وتركت ورائي منزلي بأثاثه, وكتبي وملابسي وحقائبي وكل

14- كمال زاخر، الكنيسة صراع أم مخاض أم ميلاد، الأقباط متحدون، الأحد 26 آب 2018.

أموالي، ووزعتها وخرجت من دمنهور الساعة العاشرة مساء، ومعي جنيهان أجرة المواصلات حتى الدير»[15].

حمل الأب متى المسكين على عاتقه مسؤوليات تجديد الحياة النسكية مع الاحتفاظ بالأصالة الآبائية القديمة، وحمل مشعل العلم والتنوير اللاهوتي، وانتقل بالرهبنة نحو عصر الرهبانية المتفانية في العبادة والمتفاعلة مع الناس.

منذ عام 1969؛ استقرّ الأب متى المسكين في دير الأنبا مقار، وعن ذلك يقول

«منذ أن دخلنا دير الأنبا مقار شعرنا بالمسؤولية، وأهمية ترميم هذا الدير، إذ إنّه كان في حالة يرثى لها، وكأنه على ميعاد معنا، وذلك يتبقى من رهبانه الشيوخ جميعا إلا أربعة رهبان فقط، واحد منهم ضرير، والآخر طريح الفراش، ولا توجد قلاية واحدة -غرفة راهب- تصلح للسكن، وشرعت العمل في الدير معتمداً على الرهبان الذين يرسلهم الله في الحين الحسن، بنعمة فائقة حتى وصل عددهم ثمانون راهباً عام 1978»[16].

وفي تحقيق صحفي لجريدة «الأهرام» نشر في السادس عشر من شهر آب (أغسطس) عام 2003، أوضح حديث الراهب يوحنا، أحد رهبان دير أبو مقار، في إجابته عن سؤال حول ما يتردّد عن أنّ الدير يعدّ من أغنى الأديرة، وقد أشار البابا شنودة في أحد لقاءاته إلى أنّ عائد وفائض الدير يتجاوز عدة ملايين من الجنيهات، قال الراهب يوحنا: «ربما يأتي هذا الانطباع لأننا نهتم باستقبال الضيوف القليلين، ونحن لا نسمح بالرحلات التي تأتي للتسلية والترفيه، للحفاظ على حياة الهدوء والنسك الذي جاء من أجله الرهبان إلى الدير»[17].

15- أبونا متى المسكين، السيرة الذاتية، الطبعة الثالثة، 2011، ص 26.

16- نفسه، ص 51.

17- أشرف صادق، الأهرام العربي، الاقتصـــــاد الديني في ديـــر أبو مقـــار، عدد 13، آب 2003.

ويمثّل فكر الأب متى المسكين، خطأ إصلاحياً، لافتاً ومتمايزاً، عن الخطّ الكنسي الأرثوذكسي السائد؛ إذ يرى أنّ التربية الروحية هي الدور الرئيس والفعال للكنيسة، وأن أيّ ارتكان للكنيسة على السلطة الزمنية- السياسية، يعدّ هجراناً، وإنكاراً للروح القدس كمصدر للقوة.

رغم الحمولات الروحية التي اعتملت في نفس وفكر الأب متى المسكين، منذ ميلاد الرهبنة في قلبه، إلا أنّ الخبرات الإدارية كان لها أيضاً نصيب في حياته، وفي ذلك؛ يشير إلى أنّه، عام 1954، وإبان حبرية البابا يوساب الثاني، دعاه البطريرك للعمل كوكيل للبطريركية بالإسكندرية فرفض، ثم أعيد عليه الطلب برجاء من البطريرك، وبعد تكرار الطلب والإلحاح وافق الأب متى المسكين.

ويقول: «عملت منذ أول لحظة بعقلية منظمة وتخطيط، لإعادة أوضاع البطريركية المنهارة، فديون البطريركية كانت تزيد على خمسة آلاف جنيه، ورواتب الموظفين غير مدفوعة منذ ثلاثة أشهر»، ويضيف «رتبت رواتب ثابتة للكهنة، للمرة الأولى في مصر، وكانت هذه الرواتب عالية؛ إذ يبدأ الكاهن بمبلغ 25 جنيه، مع علاوة سنوية، علماً بأنّ خريج الجامعة كان يتقاضى اثنا عشر جنيهاً، وبدأت أعين المسؤولين في كلّ كنيسة لحصر الدخول في الخدمات، فارتفع الدخل سريعاً، لكن يبدو أنّ الكهنة كانوا يتقاضون من هذه الدخول لأنفسهم مبالغ غير قليلة، وهنا بدأ التكتل من قبل الكهنة، للتخلص مني بأية وسيلة، واستطاعوا من خلال معاونة اثنين من المطارنة إقناع البطريرك بتعيين وكيل غيري»[18].

كلّ تلك الخبرات التي تموضعت في عقل وقلب الأب متى المسكين، أفرغها في وجدان وعقول الرهبان، الذين دخلوا معه دير الأنبا مقار، والذين توافدوا على الدير عبر العقود التي مضت، وذلك عبر محور العمل والتدبير وإلقاء الكلمات الروحية، التي تعدّ خلاصة الفكر الرهباني والإنجيلي الآبائي، كما احتشد في عقل الأب متى المسكين، عبر قراءاته في اللاهوت بلغاتها الأصلية، وكانت تلك الملمات تسجل، ومن ثم تخرج في شكل كتيبات ومقالات، فضلاً عن الكتب والمؤلفات التي

18- أبونا متى المسكين، السيرة الذاتية، ص ص 24- 25.

تخرج عن الدير، وفق ذلك المفهوم، وتلك الحياة المنظمة جاءت حياة الرهبان بدير الأنبا مقار، تحت الرعاية الروحية والفكرية للأب متى المسكين.

ويقول الأب متى المسكين عن الرهبان بدير الأنبا مقار: «أصبحوا شخصيات منظمة، وعلى مستوى المسؤوليات والقيادة في أيّ موقع، ومنهم شخصيات فريدة ونادرة، وأيضاً كلّ هؤلاء موضوعون تحت المحاصرة، فلا يختار منهم أساقفة ولا يدعون لحضور مؤتمرات، ولا يشتركون في أيّ نشاط عام للكنيسة، وفي هذا كلّه يزداد حبّنا وتجرّدنا»[19].

كان دير القديس الأنبا مقار أقرب للمستقل فكرياً وإدارياً عن الكنيسة والبطريرك شنودة الثالث، 1971 -2012؛ يرتدي رهبانه ملابس مختلفة، ويقرؤون ويترجمون ويصدرون كتباً تترجم لعدة لغات، ويعلن البابا شنودة خلافه معهم علناً، حين يقول في إحدى لقاءاته، في جوابه لأحد السائلين عن رغبته في الرهبنة بدير أبو مقار: «إن روحت هناك هتتعب وتخرج، وأفضل لك تأخذها من قاصرها وابحث على مكان تاني، عدد الذين خرجوا من الدير حتى الآن اثنين وخمسين راهباً، مكتوبين عندي بالاسم، منهم من جاء سليماً، ومنهم من خضع لعلاج نفسي وعقلي، ومنهم من ترك الرهبنة نهائياً، ومنهم من يوجد عندي في دير الأنبا بيشوي، وعموماً يا ابني ابحث عن الرفيق قبل الطريق»[20].

ويؤكّد البابا شنودة الثالث، في موضع آخر، أنّه أرسل للقمص متى المسكين أكثر من مرة ملاحظاته، إلا أنّ الأخير صمّم على طباعة كتبه بنفس ما جاء فيها، ما دفع البابا للردّ على تلك الكتب والمطبوعات والمؤلفات التي يصدرها، أثناء محاضراته بالكلية الإكليريكية، لكن دون ذكر اسم المؤلِّف، ثم وصف القمص متى المسكين في كتاباته بأنّه «راهب أمين، لكنه لا يدرك خطورة التعبير اللاهوتي الخاطئ»[21].

ثمة عدة آراء تتجه نحو تفسير المسافة البينية بين الأب متى المسكين والبابا شنودة الثالث؛ حيث تتمركز غالبيتها في محاولة سرد تاريخ الخلاف بينهما،

19- نفسه، ص 53.

20- فيديو للبابا شنودة منشور على: https://www.youtube.com/watch?v=y517k4Y7uul

21- أندرو نادر: وثائق أسرار الخلافات بين الأب متى المسكين والبابا كيرلس، دوت مصر، الثلاثاء 20 أيلول 2016.

الذي يبدأ عقائدياً, حينما رسم الأنبا شنودة أسقفا للتعليم, وبدأ يضع ملاحظاته على مؤلفات الأب متى المسكين, إلّا أنّ الأخير لم يلتفت لذلك, ونشر مؤلفاته, فضلاً عن خروج مؤلفات دير أبو مقار دون صورة البطريرك البابا شنودة الثالث.

ويرى آخرون أنّه الأب متى المسكين وجد الفرصة لقراءة مجموعة كاملة لأقوال الآباء باللغة الإنجليزية, فقرأها بنهم, فانطبع عليه فكرهم, وفي ذلك يقول الأب متى المسكين في سيرته: «حينما نزلت إلى العالم من الدير بعد ثلاثة أعوام؛ اكتشفت بعد حديثي مع بعض الشخصيات, أنّ مدركاتي الروحية والإنجيلية صارت من نوع آخر تماماً, وبعمق آخر, وحاولت أن اختصر في علاقاتي حتى لا أثير حولي أيّة حركة».

وذلك كلّه يوضح لنا حجم المتغيرات العنيفة, التي لحقت بدير الأنبا مقار ورهبانه, بعد وفاة الأب متى المسكين, عام 2006, ثم قرار الأنبا ميخائيل مطران أسيوط والرئيس التاريخي للدير بالاستقالة من منصبه, عام 2009, اعتراضاً منه على إنهاء استقلالية الدير, ودخول رهبان جدد إليه عام 2010, ومحاولة جذب الدير ورهبانه إلى رؤية وإدارة البابا شنودة؛ الـأمر الذي خلق حالة «صراع» لم يكن يعرفها الدير ولا الرهبان من قبل, وانتهت بمقتل الأنبا أبيفانيوس, وما أعقب الحادث من تطورات درامية.

و**نختم هذه الورقة البحثية** بكلمة البطريرك تواوضروس الثاني, أثناء جنازة الأنبا بيفانيوس رئيس دير الأنبا مقار؛ حيث قال" :أخرجوا الانحراف بعيداً عن الرهبنة, أنتم لا تتبعون أحداً بعينه, أنتم رهبان القديس العظيم الأنبا مقار, لا تتحدثوا للإعلام؛ لأنّ الرهبنة موت عن العالم».

hafryatnews

hafryatnews

hafryat news

hafryatnews

hafryatnews

hafryat news

All Rights Reserved © 2018

www.hafryat.com

جميع الحقوق محفوظة© 2018